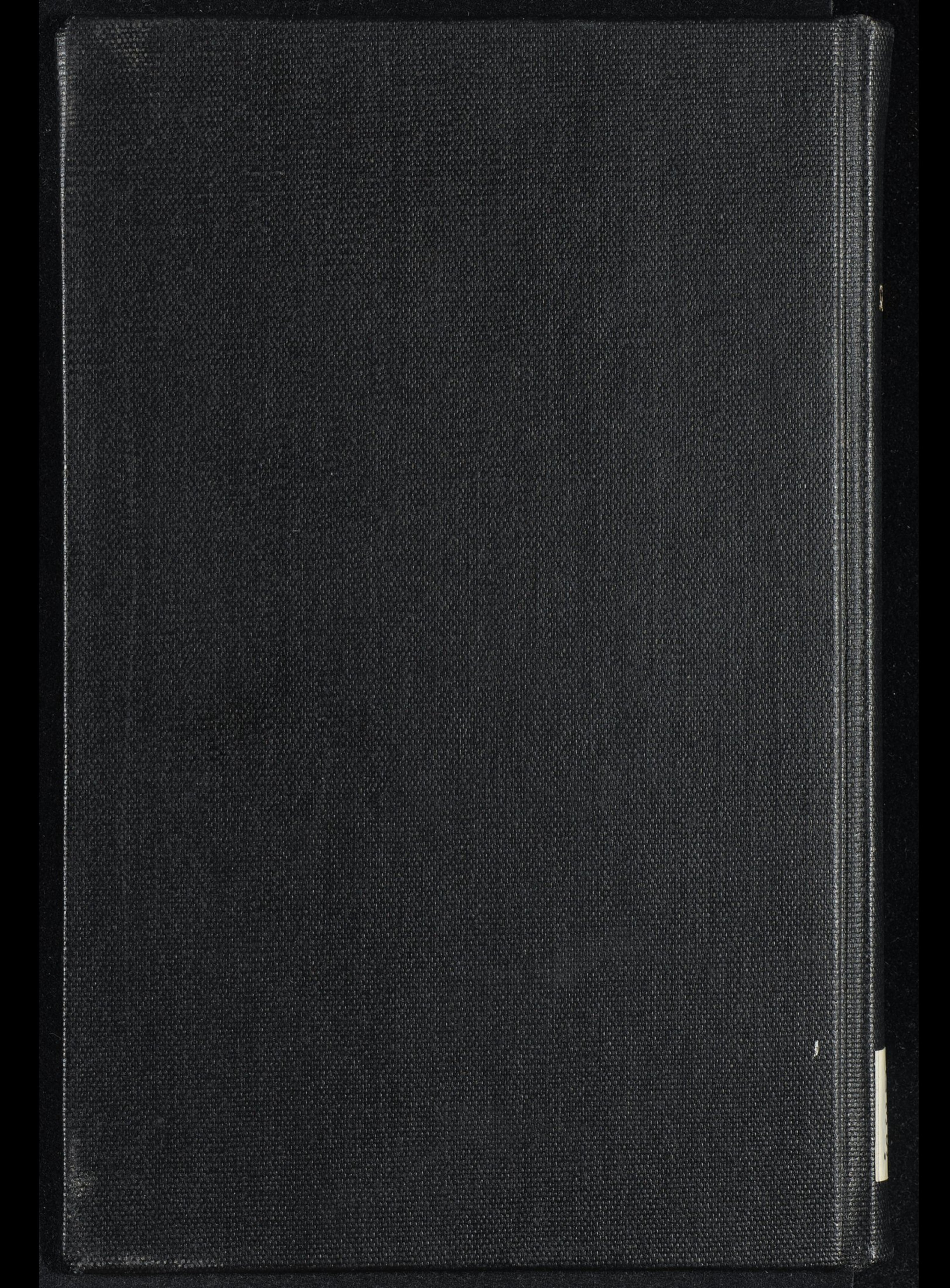
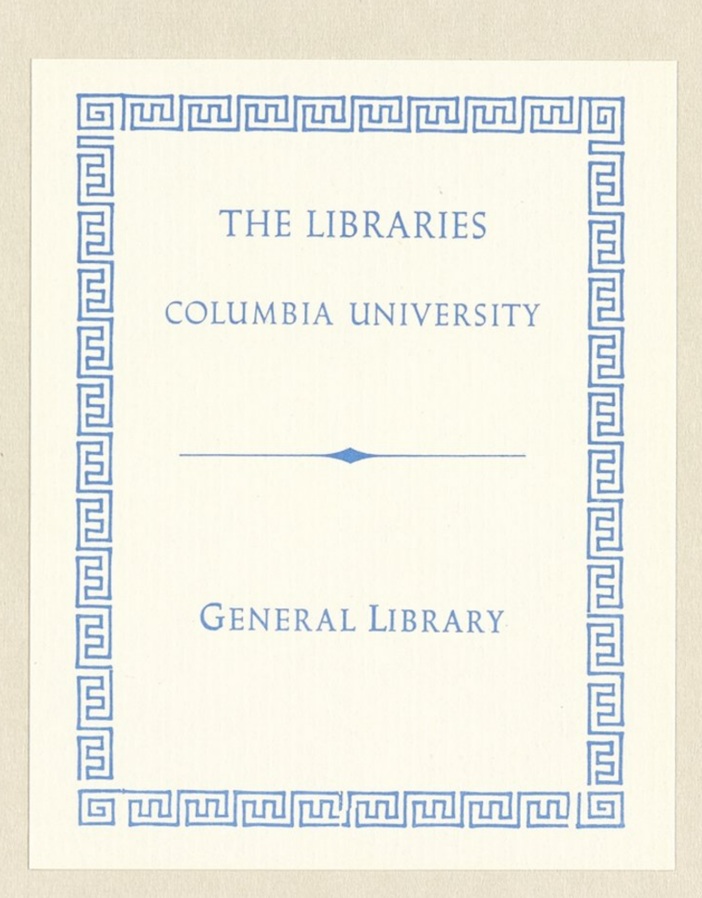
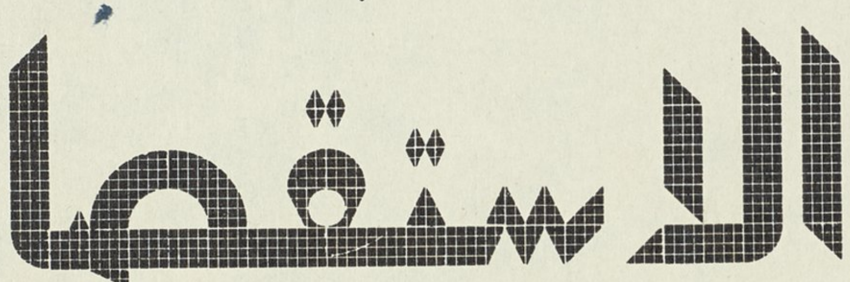



THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY
GENERAL LIBRARY

الشيخ ابو العباس احمد بن خالد الناصرى

كتاب



لأخبار دول المغرب الاقصى

الدولة السعدية

الجزء الخامس

تحقيق وتعليق ولدى المؤلف صاحبي السعادة :
الاستاذ جعفر الناصرى — والاستاذ محمد الناصرى

دار الكتاب
الدار البيضاء
١٩٥٥

وستسمع فى أخبار دولته من أنباء سعاداته ما تقف به على حقيقة الحال ان شاء الله . وأما أمر المتوكل فانه بعد توالى الهزائم عليه فر الى جبل درن وتوغل فى قنه ثم فر منه الى باديس فاقام بها مدة ثم ذهب الى سبتة ثم دخل طنجة مستصرخا بعظيم البرتقال ، والله تعالى لا يهمل من حقوق عباده وزن المثقال .

الغزوة الكبرى بوادى المخازن من بلاد الهبط والسبب فيها

كان من خبر هذه الغزوة أن السلطان المخلوع أبا عبد الله محمد بن عبدالله السعدى لما دخل طنجة قصد طاغية البرتقال ، واسمه سبستيان ، بكسر السين وفتح الباء والسين وسكون التاء القريبة من الطاء ، وهو طاغيتهم الاعظم ، وليس قائد الجيش فقط على ماهو المحقق فى تواريخهم ، وتطارح عليه وشكا اليه ما ناله من عمه أبى مروان المعتصم بالله وطلب منه الاعانة عليه كى يسترجع ملكه. وينتزع منه حقه ، فاشكاه الطاغية ولبى دعوته وصادف منه شرها الى تملك سواحل المغرب وأمصاره ، فشرط عليه أن يكون للنصارى سائر السواحل وله هو ما وراء ذلك فقبل أبو عبد الله ذلك والتزمه ، وللحين جمع الطاغية جموعه واستوعب كبراء جيشه ووجوه دولته وعزم على الخروج الى بلاد الاسلام .

ومن المتواتر فى تواريخ الافرنج : ان كبار دولته حذروه عاقبة هذا الخروج ونهوه عن التغرير ببيضة البرتقال وتوريطها فى بلاد المغرب وقبائله ، فصم عن سماع قولهم ولج فى رأيه ، وملك الطمع قلبه ، وأبى الا الخروج فأسعفوه وخرج من طنجة فى جيش ، قال ابن القاضى فى «المنتقى المقصور» : « عدده مائة ألف وخمسة وعشرون ألفا » ، وقال أبو عبد الله محمد العربى الفاسى فى مرآة «المحاسن» يقال : ان مجموعهم كان مائة ألف وعشرين ألفا وأقل ما قيل فى عددهم ثمانون ألف مقاتل . وكان مع محمد بن عبد الله نحو الثلاثمائة من أصحابه ، قال بعضهم : وكان عدد الانفاض التى يجرونها مائتين،

وقصدوا هلاك المغرب وحصد المسلمين ، وادارة رحى الهوان على الدين ، فعظم ذلك على الناس وامتلأت صدورهم رعبا وقلوبهم كربا ، وبلغت القلوب الحناجر ، واتقدت بها نيران الهواجر ، وكان محمد بن عبد الله المذكور قد كتب عند خروجه بجيش البرتقال الى بلاد الاسلام رسالة بعث بها الى أعيان المغرب من علمائه وأشرافه وذوى رأيه يغمض عليهم بها فى نكث بيعته ونقضها ، ومبايعة عمه من غير موجب شرعى ، وقال لهم : « ما استصرخت بالنصارى حتى عدمت النصرة من المسلمين » وقد قال العلماء : انه يجوز للانسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه » . وتهددهم فيها وأبرق وأرعد . وقال : « فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » وسمى النصارى : أهل العدوة واستنكف من تسميتهم نصارى ، فأجابه علماء الاسلام رضوان الله عليهم عن رسالته تلك برسالة دامغة لجيش أباطيله وفاضحة لركيك تأويله، وهذا نص جواب تلك الرسالة حرفا حرفا: «الحمد لله كما يجب لجلاله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير أنبيائه وارساله ، والرضى عن آله وأصحابه ، الذين هجروا دين الكفر فما نصروه ولا استنصروا به ، حتى أسس الله دين الاسلام بشروط صحته وكماله .

وبعد ، فهذا جواب من كافة الشرفاء والعلماء والصلحاء والاجناد من أهل المغرب وفقهم الله لمولانا محمد ابن مولانا عبد الله السعدى عن كتابه الذى استدعاهم فيه لحكم الكتاب والسنة ، واستدل بحججه الواهية المنكبة عن الصواب ، قائلين له عن أول حجة صدر بها الخطاب ، لو رجعت على نفسك اللوم والعتاب لعلمت أنك المحجوج والمصاب ، فقولك : خلعنا بيعتك التى التزمناها ، وطوقناها أعناقنا وعقدناها ، فلا والله ما كان ذلك منا عن هوى متبع ، ولا على سبيل خارج عن طريق الشرع مبتدع، وانما ذلك منا على منهج الشرع وطريقه ، وعلى سبيل الحق وتحقيقه ، وسنشرح لك ذلك ونبينه ، ونسطره لك بالادلة الشرعية التى ترقيه وتزينه ، نعم كنت سلطانا بما عقد لك والدك من البيعة ، وترك لك من الاموال والعدد والحصون مما لم يتهيأ مثله لاحد من أسلافكم الكرام رضوان الله عليهم ، فجاهدوا بما حصل لهم من ذلك فى

الله حق جهاده ، حتى استخلصوا من أيدى الكفار رقاب عباد الله وحصون بلاده ، وأسسوا لدين الله قواعد وأركانا ، وملكوا من المغرب بلادا معتبرة وأوطانا ، فلما وصل ذلك اليك ألقت اليك العباد أعنتها ، وملكتك أزمتها ، غير مبدلين ولا مغيرين ، ولا باغين ولا منكرين ، الى أن قام عليك عمك بحجته التى لا يمكنك جحدها ، حسبما ثبت كما يجب عقدها ، فخرجت مبادرا له بدفعها ، ولقيته بها وأنت واسطة عقدها ، وحامل راية عهدها ، وعمك فى فئة لا يخطر على بال عاقل أن يقابل جندا من جنودك ، أو يدافع ما تحت لواء من ألويتك وبنودك ، فما هوالا أن جرى القتال، وحضر النزال، رجعت على عقبك هاربا هروب مطرود بقصاص ، وجنودك تناديك ولات حين مناص ، فتركت عددك ومحلتك بكل ما فيها ، وخلفتها لعدوك ينهبها ويسبيها ، وهربت عن مدينة فاس المحروسة وسكانها ينادونك : لمن تركتنا والى من تكلنا ؟ فلم تلتفت اليهم وأسلمت بلادهم على ما فيها من خزائن الاموال والعدد الوافرة والرجال والاسوار المرتفعة المانعة ، والمدينة المشهورة الجامعة ، فأصبح أهلها واليد العادية من المفسدين تريد أن تمتد الى الحريم والاولاد ، والطارف والتلاد ، ولادافع عن الضعفاء والمساكين الاالله تعالى الذى قال فى مثلهم: «ومن أصدق من الله قيلا »،« لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا،»فما أمكنهم بعدهروبك عنهم واسلامك لهم فوضى مهملين الا النظر فى أمرهم ، واعمال الفكر فى التدبير على أنفسهم ، فبينما هم على ذلك اذا بعمك بجنوده على باب مدينتهم قائما بحجته ، سالكا فى ذلك سبيل أبيه رحمه الله ومحجته ، حسبما تقرر ذلك عندكم وظهر ، ولم يخف عنكم منه عين ولا أثر ، اذ كان مولانا محمد الجد الاكبر عهد لاولاده مولانا أحمد ، ومولانا محمد الشيخ واخوانهم ، لايتولى الخلافة منهم ولا من أولادهم الا الاكبر فالاكبر ، فالتزموا ذلك الى أن كبر أولادهم فطلب جدك من عمك الوفاء بذلك فامتنع ، فقاتله على ذلك حتى تم له الامر وانتظم ، فعهد لوالدك الذى كان أكبر أولاده، فلم ينازعه أحد فى ذلك الى أن القى والدك رحمه الله ذلك ، وعهد اليك فلم ينازعكم أحد ، فأبى الله الا الحق فاعطى ملكه لعمك الذى هو أكبركم بعد أبيك ، فان سلمت هذا فأى

حجة تدلى بها وأى طريق تعتمد عليها؟ وان أنكرت هذا فلا أثر لخلافة أبيك من قبلك ولا لجدك من قبله لثبوتها لعمكم مولانا أحمد ، اذ لا حجة حينئذ لجدك فى القيام على عمك ، فخلافته صحيحة لبيعة جدك له ، فلم يبق الا التغلب الذى تدلى به فى مسئلة عمك وفى قيامه عليك ، فان كنت تريدأن تسقط حجته بالتغلب عليك فحجتك أبين فى السقوط لعدم ثبوت الخلافة لمن عقدها لك ، اذ المعدوم شرعا كالمعدوم حسا ، فلم يبق بينكم الا : « والملك بعد أبى ليلى لمن غلبا » فيلزمك على هذا أن تثبت ما عقده مولانا الجد رحمه الله ،وعليه فالخلافة لعمك القائم عليك اذ هو أكبركم فى هذا التاريخ .

فان قلت : ان ما عقده الجد غير صحيح ، قلنا : فقد ذكر الامام الماوردى رحمه الله ورضى عنه فى كتاب الاحكام السلطانية لـه فى باب عقد الخلافة: أن عبد الملك بن مروان رتبها فى الاكبر فالاكبر من بنيه فلم ينازعه أحد فى ذلك .

فان قلت : فعل عبد الملك ليس بحجة ، قلنا : سكوت العلماء على ذلك وهم ماهم فى زمانه هو الحجة، اذ لايمكن أن يسكتوا على باطل، واقرار أهل العصر الواحد على مسألة من المسائل واتفاقهم عليها يقوم مقام الاجماع الـذى هو حجة الله فى أرضه، وكان أيضا من محفوظات علماء فاس المحروسة ما خرجه مسلم رضى الله عنه فى صحيحه فى كتاب الامارة ما نصه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة عند رأسه يقال هذه غدرة فلان بن فلان ، ألا ولا غادر أعظم غدرا من أمير عامة» قال القاضى: أبو الفضل عياض رحمه الله فى كتاب «اكمال المعلم على شرح فوائد مسلم » : «يعنى لم يحطهم ولم ينصح لهم ولم يف بالعقد الذى تقلده من أمرهم » وفى الباب نفسه عنه عليه الصلاة والسلام ما نصه : « مامن أمير استرعاه الله رعية ثم لم ينصح لهم الا لم يرح رائحة الجنة، وان ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام» . وفى «الاكمال» نفسه قال القاضى : « والذى عليه الناس أن القوم اذا بقوا فوضى مهملين لا امام لهم فلهم أن يتفقوا على امام يبايعونه ، ويستخلفونه عليهم ينصف بعضهم من بعض. ويقيم لهم الحدود » . فلما أسلمتهم وأضحوا

بغير امام وعمك يدلى بحجته التى ذكرنا لك مع ما حفظوه من كلام النبى صلى الله عليه وسلم وكلام السلف الصالح ، وأيسوا من رجوعك اليهم ، وبقوا فوضى مهملين لم يسعهم الا الرجوع الى ما عليه الناس رضوان الله عليهم فاتفقوا على أن يبايعوا عمك لما ذكرنا لك من الحجج التى لا يسعك جحدها الا على وجه المكابرة ، فاطمأن الناس وسكنوا وانفتحت السبل وأقيمت الحدود وارتفعت اليد العادية .

فان قلت :كان يجب على أهل فاس أن يقاتلوا على البيعة التى التزموها لك قلنا : انما يلزمهم القتال أن لو أقمت بين أظهرهم فيكون قتالهم على وجه شرعى لان القتال على الحدود الشرعية انما يكون بعد نصب امام يصدر الناس عن رأيه ولا يمكنك أيضا جحدها ايه . ثم وصلت الى مراكش الغراء التى تجبى اليها الاموال من البوادى والامصار ، وتشد اليها الرحال من سائر الاقطار ، فلقيك أهلها بالترحاب والسرور ، وأنواع الفرح والحبور ، فوجدت خزائنها تتدرج ملئا من كل شىء، فأما أسوارها ورحابها فهى كما قيل : تربة الولى ، ومدرج الحلى ، وحضرة الملك الاولى ، والبرج النيرالجلى ، فحللتها وتمكنت من اموالها وخزائنها ، ووافقك اهلها فما نكثوا ولا غدروا ، ولا خرجوا عليك فى سلطانك ولا أنكروا ، فطلبت أيضا قتال عمك وجندت جنودا لايجمعها ديوان حافظ، ولا يعهدها لسان لافظ ، فخرجت اليه تجر أعنة الخيل وراءك كالسيول ، والرماة قد ملأت الهضاب والتلول ، فما كان من حديثك الا أن وقع القتال وحضر النزال،بادرت هاربا محكما للعادة،تاركا للرؤساءمن أجنادك والقادة ، فحلت بهم الخطوب والرزايا ، واختطفتهم أيدى المنايا ، فتركت أيضا محلتك بما فيها من حريمك وأموالك وعدتك ، ثم أسرعت هاربا الى مراكش فما صدك عنها أحد من أهلها ، ولا قال لك أحد لست ببعلها فعملوا على القتال معكوالتمنع باسوارها الحصينة ، والحصار داخل المدينة ، فلما كان الليل غدرتهم وغادرت بناتك وأخواتك وعماتك ونساءك ، وخرجت عنهم من القصبة وتركتهم لا بواب عليهم ولا حارس ، ولا راجل ولا فارس، فيالها من مصيبة ما أعظمها ، ومن داهية ما أعظها . ولولا فضل الله ولطفه

ووعده بتطهير أهل البيت لامتدت اليهم أيدى السفلة من الفسقة فاى حجة تبقى لك بعد هذا؟ وأى كلام لك بين الرجال يا هذا ؟ ثم جاءك عمك أيضا بما سلف من الحجج فوجد أهلها فى لطف الله سبحانه وهم يحرسون أولادهم وديارهم من اليد العادية، فأنقذهم الله به أيضا فبايعوا عمك بما سلف من الحجج ، واطمأنوا وسكنوا ، ثم هربت للجبل عند صاحبه (*) فصرتما فى نهب أموال الرعية وسفك دمائهم ، وأكثر ما صفا لك من ذلك أهل الذمة المصغرون بحكم القرآن ، الداخلون تحت عهد سيد الثقلين فى الامن والامان فانت وهم فى استيلائك عليهم وظلمك اياهم كما قيل .

ان هو مستوليا على أحد — الا على أضعف المجانين

ولم تبال بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « أنا خصيم من ظلم ذميا يوم القيامة » ثم خربت العامر ، وأفسدت ما شيدت الاسلاف للاسلام من المآثر، فلما رأى أهل السوس الاقصى ذلك أيقنوا انك انما قصدت خراب الاسلام وأهله فنكب عنك أهل الدين والعلم منهم وبقيت ، كما قيل ، : « فى خلف كجلد الاجرب » .

فان قلت : ان أولئك الخلف لم يبايعوا عمك فتنقض بهم ما قررناه ، قلنا : لم يطعن فى خلافة أمير المؤمنين أبى الحسن على بن أبى طالب رضى الله عنه من تخلف عنها من اهل الشام ، وفيهم من قد علمت من الناس ، والاجماع على صحة بيعته: وسمى من تخلف عنها: باغيا لقول النبى صلى الله عليه وسلم لعمار : «تقتلك الفئة الباغية» فقتله أصحاب معاوية رضى الله عنه ، والحديث من أعلام نبوته عليه الصلاة والسلام ، والقاعدة أن ما اجتمع عليه من يعتبر من أهل العصر الواحد هو المعول عليه ، ولا يعد خلاف من خالفه خلافا وهذا كله بالنظر الى ما كان من حديثك قبل التحزب مع عدو الدين ، والاخذ

(*) المقصود به هو الشيخ ابو عبد الله بن محمد واسعدون الذى التجأ اليه المتوكل بعد فراره انظر «الدوحة» صفحة ٨٤ « وطبقات الحضيكى » فى حرف الميم « والممتع» «والصفوة» وقد ذكرت ترجمته فى هذا المؤلف الاخير استطرادا فى ترجمة تلميذه سيدى احمد المعروف بالشيخ وكانت وفاة ابن واسعدون هذا عام ٩٨٧ بعد غزوة وادى المخازن بسنة.

فى التخليط العظيم على المسلمين ، فانك اتفقت معهم على دخول آصيلا ، وأعطيتهم بلاد الاسلام ، فيالله ويالرسوله لهذه المصيبة التى أحدثتها ، وعلى المسلمين فتقتها ، ولكن الله تعالى لك ولهم بالمرصاد ثم لم تتمالك أن ألقيت بنفسك اليهم ورضيت بجوارهم وموالاتهم كأنك ما طرق سمعك قول الله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم » .قال أبو حيـــان رحمه الله : أى لا تنصروهم ولاتستنصروا بهم وفى كتاب القضاء من نوازل الامام البرزلى رحمه الله: أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتونى رحمه الله استفتى علماء زمانه رضى الله عنهم ،وهم ماهم ، فى استنصار ابن عباد الاندلسى بالكتابة الى الافرنج على أن يعينوه على المسلمين فأجابه جلهم رضى الله عنهم بردته وكفره ، فتأمل هذا مع قضيتك تجدها أحروية مناسبة لقضية ابن عباد فى عقدها ابتداء ، وانه متى طرأ الكفر وجب العزل ، وناهيك بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالسمع والطاعة » وبما أفتى العلماء رضوان الله عليهم بردة من استنصــر بالنصارى على المسلمين فهو نص جلى فى وجوب خلعك ، وسقوط بيعتك ، فلم يبق لك الا منازعة الحق سبحانه فى حكمه ، « ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب » .

وأما قولك : فى النصارى فانك رجعت الى أهل العدوة واستعظمت أن تسميهم بالنصارى ، ففيه المقت الذى لا يخفى . وقولك : رجعت اليهم حيـــن عدمت النصرة من المسلمين ففيه محظوران يحضر عندهما غضب الرب جـــل جلاله أحدهما: كونك اعتقدت أن المسلمين كلهم على ضلال ، وان الحق لم يبق من يقوم به الا النصارى والعياذ بالله والثانى : انك استعنت بالكفار على المسلمين. وفى الحديث: أن رجلا مـــن المشركيـــن ممن عـــرف بالنجـــدة والشجاعة جـــاء الى النبـــى صـــلى الله عليـــه وسلـــم . فوجده بحرة الوبرة « موضع على نحو اربعة اميال من المدينة » فقال لـــه : « يامحمد ، جئت لانصرك » فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « ان كنت تؤمن بالله ورسوله» فقال: « لا أفعل » فقال له عليه الصلاة والسلام : « انـــى لا

أستعين بمشرك » وما سمعته من قول العلماء رضى الله عنهم فى الاستعانة بهم انما هو على المشركين بان نجعلهم خدمة لا زبال الدواب لا مقاتلة ، فأما الاستعانة بهم على المسلمين فلا يخطر الا على بال من قلبه وراء لسانه ، وقد قيل قديما :«لسان العاقل من وراء قلبه »وفى قولك: يجوز للانسان ان يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه وجعلت قولك هذا قضية أنتجت لك دليلا على جواز الاستعانة بالكفار على المسلمين ، وفى ذلك مصادمة للقرآن والحديث وهو عين الكفر أيضا والعياذ بالله

وقولك : فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، ايه أنت مع الله ورسوله أو مع حزبه فتأمل ما قلت ففى الحديث : « يتكلم أحدكم بالكلمة تهوى به فى النار سبعين خريفا

ولما سمعت جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم قولك هذا، حملتهم الغيرة الاسلامية والحمية الايمانية ، وتجدد لهم نور الايمان . وأشرق عليهم شعاع الايقان، فمن قائل يقول: « لا دين الا دين محمد صلى الله عليه وسلم» ومن قائل يقول: «سترون ما أصنع عند اللقاء» ، ومن قائل يقول : « وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين » ومن قائل يقول : « انما قصد التشفى بالمسلمين اذ لو كان يطلب الصلاح لما صدرت منه هذه الافعال القبيحة » الى غير ذلك فجزاهم الله عن الاسلام خيرا . ورضى عنهم وبارك فيهم ، فلله درهم من رجال وفرسان وأبطال وشجعان ، فلو لم يكن منهم الا ما غير قلوبهم على الدين لكان كافيا فى صحة ايمانهم وعظيم ايقانهم فقد بلغ نور غضبهم لله سبحانه ساق العرش والحب فى الله والبغض فى الله من قواعد الايمان .

وقولك أيضا : متبرئا من حول الله وقوته ، فان لم تفعلوا فالسيف. فهو كلام هذيان يدل على حماقة قائله فقط . أنبا سيفك هذا! وأنت مع المسلمين فى أربع وعشرين معركة لم تثبت لك فيها راية ، ثم زال نبوه الان بالكفار فهذه أضحوكة فتأملها .

وأما ما نسبته لامام دار الهجرة فكفاك عجزا ان لم تعين لنا نصا جليا

نعتمد عليه فيما تحتج به الا أنك كثرت به سواد القرطاس مغربا بذكره لامعربا بنصه .

وما نسبته للحنفية من أكل الميتة عند الضرورة وتسويغ الغصة بخمر، فهو مما نص عليه المالكية فى مختصراتهم التى ألفوها للصبيان ، فعدولك عن ذلك الى الحنفية اما قصور ، واما الغاء لمذهب مالك رضى الله عنه ، وهو النجم الثاقب .

وأما قولك : أنتم أهل بغى وعناد فلا نسلم لك ذلك الا لو أقمت بين أظهرنا وقاتلت معنا حتى ترى أنسلمك أم لا . فأما اذ هربت عنا وتركتنا فالحجة عليك لا علينا ، على انك فى كتابك تفسق الكل بذلك وتكفره ، وقد قال العلماء رضى الله عنهم: «من يقول بتكفير العامة فهو أولى بالتكفير» وذلك معزول لزعيم العلماء القاضى أبى الوليد ابن رشد ، والقاضى أبى الفضل عياض ، وكيف لاتنظر لقضايا تلمسان وتونس وغيرهما من سائر البلدان ، وكيف وقع لامرائهم المستنصرين بالكفار على المسلمين ، هل حصلوا على شىء مما قصدوه ، أو بلغوا شيئا مما أملوه؟ على أن أكثر العلماء حكموا بردتهم ففاتتهم الدنيا والاخرة والعياذ بالله .

وقد افتخرت فى كتابك بجموع الروم وقيامهم معك ، وعولت على بلوغ الملك بحشودهم ، وأنى لك هذا مع قول الله تعالى: « اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا» «ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون »وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم : «لن تغلب هذه الامة ولو اجتمع عليها من الكفار ما بين لابات الدنيا » وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سيقاتل آخر هذه الامة الدجال » وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «سألت ربى ثلاثا فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة ، سألته الا يهلكهم بسنة عامة فأعطانيها ، وسألته ألا يغلبهم عدوهم الكافر فأعطانيها ، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » . والكل عليك واياك نعنى .

وما ذكرته عن عمك : فاعلم أنه لما بلغه خبرك واستنصارك بالكفار عقد ألويته المنصورة بالله فى وسط جامع المنصور بعد أن ختم عليها أهل الله من

حملة القرآن مائة ختمة، وصحيح البخارى، وضجوا عند ذلك بالتهليل والتكبير، والصلاة والسلام على البشير النذير ، والدعاء له وللاسلام بالنصر والتمكين، والفتح الشامخ المبين ، فلو سمعت ذلك لعلمت وتحققت أن أبواب السماء انفتحت لذلك ، وقضى ما هنالك ، وبلغه كتابك الذى كان هذا جوابا عنه وهو بوسط تامسنا معه من جنود الله وأنصاره وحماة دينه ما يجعل الله فيه البركة، ولولا أن الشرع العزيز أمر بتعظيم جنود الاسلام والمباهاة بها ، والافتخار بكثرتها لما قرونا لكم أمرها، اذ لا اعتماد له أيده الله عليها ، وكذلك هم لا اعتماد لهم الا على حول الله وقوته ونصره وتأييده، والناس على دين الملك ، وقد قاتلك وأنت فى وسط المسلمين فى بضع عشرة معركة لم تنصر لك فيها راية ، فأى نحس وشؤم حلا بديار الروم، فان جلبتهم فالله لك ولهم بالمرصاد، ارجع الى الله أيها المسكين ، وتب اليه فانه يقبل التوبة عن عباده فى كل وقت وحين ، ودع عنك كلام من لا ينهضك حاله ، ولا يدلك على الله مقاله ، وهذه نصيحة ان قبلتها، وموعظة ان وفقت اليها، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، والسلام » انتهت الرسالة .

وكان خروج محمد بن عبد الله بجيش البرتقال وفصوله به من طنجة فى ربيع الثانى سنة ست وثمانين وتسعمائة ، قال فى «المرآة» : « انهم لما خرجوا الى بلاد الاسلام ضربوا محلاتهم بالفحص ، على أقل من مسيرة يوم من مدينة القصر ، وكانت آصيلا قد تصيرت اليهم قبل ذلك بأشهر ، يعنى بعد فرارهم عنها أيام السلطان محمد الشيخ كما تقدم ، فعاين أهل القصر الهلكة لقرب العدو منهم وقوته التى لا طاقة لهم بها ، وفشا النفاق لاجل السلطان محمد بن عبد الله الذى معهم ولاجل بعد صريخ المسلمين ، فان السلطان أبا مروان المعتصم بالله كان اذ ذاك بمراكش ، فاستبطأوا وصول الخبر اليه ، ثم مجيئه بعد ذلك ، فلم يبق لهم تدبير الا الفرار ، والتحصن بالجبال وغيرها ، فقال الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسى رحمه الله ، وكان اذ ذاك بالقصر ، لرجل من أصحابه: «نادفى الناس أن الزموا بلادكم ودوركم، فان عظيم النصارى

مسجون حيث هو ، حتى يجيء السلطان من مراكش ، وان النصارى غنيمة المسلمين، ومن شاء فليعط خمسين اوقية فى النصرانى» يشير الى مبلغ قيمة النصرانى فى الغنيمة ، فما انتقل النصارى من مكانهم ذلك اكثر من شهر حتى قدم السلطان أبو مروان وكان مريضا » اه .

وقال فى «النزهة» : « ان النصارى لما برزوا من طنجة شنوا الغارة على السواحل ، فأعلم أهلها السلطان أبا مروان ، وكان بمراكش ، وشكوا اليه كلب العدو عليهم، فكتب السلطان أبو مروان من مراكش الى الطاغية : « ان سطوتك قد ظهرت فى خروجك من أرضك ، وجوازك العدوة فان ثبت الى أن نقدم عليك فأنت نصرانى حقيقى شجاع . والا فأنت كلب ابن كلب » فلما بلغه الكتاب غضب ، واستشار اصحابه هل نقيم حتى يلحق بنا من خلفنا من أصحابنا، فقال له محمد بن عبد الله : « الرأى أن نتقدم ونملك تطاوين والعرايش والقصر ونجمع ما فيها من العدة ونتقوى بما فيها من الذخائر » فأعجب ذلك الرأى أهل الديوان ولم يعجب الطاغية . وكتب السلطان ابو مروان لاخيه أبى العباس أحمد ، وكان نائبه على فاس وأعمالها ، أن يخرج بجيوش فاس واحوازها ويتهيأ للقتال،ثم كتب اليه ايضا فى شأن مئونة الجيش كتابا يقول فيه : « من عبد الله المعتصم بالله المجاهد فى سبيل الله أمير المؤمنين أبى مروان عبد الملك بن امير المؤمنين أبى عبد الله محمد الشيخ الشريف الحسنى أيد الله أمره وأعز نصره الى أخينا الاعز الانجب بابا أحمد بن مولانا الوالد حرس الله كريم اخائه سلام كريم ورحمة الله وبركاته أما بعد فانا كتبناه اليكم من محلتنا السعيدة بتامسنا ولا زائد بحمد الله الا الخير والعافية والنعم الضافية ، هذا وانه ساعة وصوله اليكم تخرجون من الخدام لعمالة مكناسة وقبيلة زمور وأولاد جلول من يفرض عليهم علف محلتنا المنصورة ومؤنتها ويأمرهم برفعه وابلاغه الى مدينة سلا ، وقدر ذلك صحفة شعير ، وعشرون مدا من القمح لكل نائبة وصاع من سمن وكبش لكل أربع نوائب ، ووكد عليهم رعاك الله أن يعتنوا بذلك ، وبايصاله الى المكان المذكور من غير عطلة وهذا ما وجب به الاعلام اليكم والله يرعاكم بمنه

والسلام » اه .

ثم كتب السلطان أبو مروان للطاغية ثانية ، وذلك بعد ما وصـــل الى القصر : انى رحلت اليك ست عشرة مرحلة أما ترحل الى واحـدة ، فرحل الطاغية من موضع يقال له : تاهدارت ، ونزل على وادى المخازن بمقربة من قصر كتامة ، وكان ذلك من السلطان أبى مروان مكيدة ، ثم ان الطاغية تقدم بجيوشه ، وعبر جسر الوادى ونزل من هذه العدوة فامر السلطان بالقنطرة أن تهدم ، ووجه اليها كتيبة من الخيل فهدموها ، وكان الوادى لا مشرع له سوى القنطرة ، ثم زحف السلطان أبو مروان الى العدو بجيوش المسلمين ، وخيل الله المسومة ، وانضاف اليه من المتطوعة كل من رغب فى الاجر وطمع فى الشهادة ، وأقبل الناس سراعا من الآفاق ، وابتدروا حضور هذا المشهد الجليل،فكان ممن حضره من الاعيان الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسى وغيره.

قال فى «المرآة» : « كان الشيخ أبو المحاسن فى ذلك اليوم فى أحد الجناحين ، وأظنه الميسرة ، من عسكر المسلمين فى مقابلة النصارى دمرهم الله ، قال : فوقع فى ذلك الجناح انكسار تزحزح به المسلمون عن مصافهم، وحملت عليهم النصارى دمرهم الله فثبت الشيخ وثبت من كان معه الى أن منح الله المسلمين النصر ، وركبوا أكتاف العدو يقتلون ويأسرون ، والشيخ لم يتزلزل ، ولم يلتفت منذ توجه الى قتالهم حتى فتح الله عليهم » اه .

ولما التقت الفئتان وزحف الناس بعضهم الى بعض وحمى الوطيـــس واسود الجو بنقع الجياد ودخان المدافع وقامت الحرب على ساق توفى السلطان أبو مروان رحمه الله عند الصدمة الاولى ، وكان مريضا يقادبه فى محفة فكان من قضاء الله السابق ولطفه السابغ أنه لم يطلع على وفاته أحد الا حاجبه مولاه رضوان العلج ، فانه كتم موته ، وصار يختلف الى الاجناد ويقــول : «السلطان يأمر فلانا أن يذهب الى موضع كذا ، وفلانا أن يلزم الراية ، وفلانا يتقدم ، وفلانا يتأخر » .

وقال شارح «الزهرة» : لما توفى السلطان أبو مروان لم يظهر الذى كان سائس المحفة موته ، فصار يقدم دواب المحفة نحو العدو ، ويقول للجند :

« السلطان يأمركم بالتقدم اليهم » . وعلم أيضا بموته أخوه ، وخليفته أبو العباس أحمد بن الشيخ فكتمها ، ولم يزل الحال على ذلك ، والناس فى المناضلة والمقاتلة ومعانقة القواضب ، والاصطلاء بنار الطعان ، واحتساء كؤس الحمام الى أن هبت على المسلمين ريح النصر ، وساعدهم القدر ، وأثمرت أغصان رماحهم زهر الظفر ، فولى المشركون الادبار. ودارت عليهم دائرة البوار، وحكمت السيوف فى رقاب الكفار ففروا ولات حين فرار ، وقتل الطاغية سبستيان عظيم البرتقال غريقا فى الوادى ، وقصد النصارى القنطرة فلم يجدوا الا آثارها فخشعت نفوسهم ، وتهافتوا فى النهر تهافت الفراش على النار ، فكان ذلك من أكبر الاسباب فى استئصالهم ، وأعظم الحبائل فى اقتناصهم ولم ينج منهم الا عدد نزر وشرذمة قليلة .

وقال فى «المنتقى المقصور » : « كانت هذه الغزوة من الغزوات العظيمة الوقائع الشهيرة حضرها جم غفير من أهل الله تعالى حتى انها أشبه شىء بغزوة بدر . حدثنا شيخنا أبو راشد يعقوب اليدرى عمن يثق به أن الرجل من حاضرى ذلك المعترك كان يستبق الى النصرانى لينتهز فيه الفرصة فما يصله حتى يجده ميتا » اه .

وبحث فى القتلى عن محمد بن عبد الله المستصرخ بهم والقائد لهم الى مصارعهم فوجد غريقا فى وادى المخازن ، وذلك انه لما رأى الهزيمة فر ناجيا بنفسه واضطر الى عبور النهر فتورط فى غدير منه وغرق فمات ، فاستخرجه الغواصون وسلخ وحشى جلده تبنا وطيف به فى مراكش وغيرها من البلاد .

وممن وجد صريعا فى القتلى يومئذ الفقيه أبو عبد الله محمد بن عسكر السريفى الشفشاونى صاحب « الدوحة » ، فانه كان هرب مع المسلوخ ، وكان من بطانته ، فدخل معه بلاد العدو ، فوجد بين جيف النصارى قتيلا ، وتكلم الناس فى أمره ، حتى قيل : انه وجد على شماله مستدبر القبلة ، وفيه يقول الفقيه العلامة أبو عبد الله محمد ابن الامام الشهير أبى محمد عبد الله الهبطى رحمه الله فى منظومته التى نظم فيها أصحاب أبيه معتذرا عن ابن عسكر

المذكور ومشيرا الى توهين ما قيل فيه :

ومنهم الشيخ الذى لا ينكر — محمد أخو الدهاء عسكر
وان يكن أتى بذنب ظاهر — فعرضه من الشكوك طاهر
رأيته فى النوم ذا بشاره — وهيئة حسنة وشارة

وكان التقاء الجمعين يوم الاثنين منسلخ جمادى الاولى سنة ست وثمانين وتسعمائة ، ويوافقه من التاريخ المسيحى اليوم الرابع من أغشت سنة ثمان وسبعين وخمس عشرة مائة .

قال فى «المنتقى» وكان مقدار زمان المقاتلة خمسا وأربعين درجة وقيل اثنتين وخمسين على ما حدثنى به بعض الميقاتيين .

وقال فى «المرآة» : وحصل المسلمون على غنيمة لم يكن قط مثلها بالمغرب اذ لم يتقدم للنصارى خروج به على هذه الصورة الا أن الغنيمة لم تقسم ، وانما انتهبها الناس كما اتفق لهم بحسب القوة والبخت الدنيوى . وكان الناس يتوقعون مغبتها لاختلاط الاموال بالحرام فظهر ذلك من غلاء وغيره . وكنا نسمع أن البركة رفعت من الاموال من يومئذ .

وقد حضر الشيخ ابو المحاسن هذه الغزوة وابلى فيها بلاء حسنا وتورع عن الغنيمة فلم يتلبس منها بشىء وبلغت قيمة النصرانى ما ذكره الشيخ ، وكان سبب عدم ضبط الغنيمة وقسمها على الوجه المشروع موت السلطان أبى مروان قبل هزيمة النصارى ، وكان مريضا ، فاشتغل أخوه أبو العباس أحمد بجمع الكلمة ولم يهتبل بأمر الغنيمة فتم له ما قصد .

وقد ساق منويل فى تاريخه خبر هذه الوقعة مساقا حسنا فقال : لما استولى عبد الملك السعدى المدعو عند أهل المغرب بمولاى ملوك على ملك المغرب ، وطرد ابن أخيه مولاى محمد المعروف بالاكحل يعنى : المسلوخ ، ذهب أولا الى اصبانيا وتطارح على طاغية الاصبنيول فيليب الثانى فى أن يعينه على استرجاع ملكه فامتنع ثم دخل اشبونة وتطارح على طاغية البرتقال سبستيان فاجابه ، وذهب الى خاله طاغية الاصبنيول فيليب المذكور آنفا وطلب منه الاعانة على ماهو بصدده ، فوعده بان يعطيه من المراكب والعساكر ما يملك به العرائش ، لانه كان يرى انها تعدل سائر مراسى

المغرب ، ثم أمده بعشرين ألفا من عسكر الاصبنيول ، وكان سبستيان قد ساق معه اثنى عشر ألفا من البرتغال وثلاثة آلاف من الطليان ، ومثلها من الالمان ، ومن متطوعة الاصبنيول وغيرهم عددا كثيرا ، وبعث اليه البابا صاحب رومة بأربعة آلاف أخرى ؛ وبالف وخمسمائة من الخيل واثنى عشر مدفعا وجمع سبستيان نحو ألف مركب وجاء الى قادس .

ولما عزم على اقتحام بلاد المغرب تشفعت اليه جدته وأرباب دولته وشيوخ دينه فى الرجوع فصم عنهم وكذلك خاله فيليب حذره عاقبة التوغل فـى أرض المغرب فصم على ذلك كله ، وجاء الى قادس ومنها خرج الى طنجة .

وكان محمد بن عبد الله المسلوخ ينتظره هنالك فاجتمع به وزحفـوا الى بلاد المغرب ، وزحف اليهم السلطان عبد الملك فى عساكر المسلمين وكانوا أربعين ألفا وزيادة ، ومدافعهم أربعة وثلاثين مدفعا ، وقواد الجيش : أبو على القورى ، والحسين العلج الجنوى ، ومحمد أبو طيبة ، وعلى بن موسى ، وأخوه أحمد بن موسى ، الذى كان عاملا على العرائش ، فجاء فى جمعه الى السلطان عبد الملك وانضم اليه ، ولما تقارب الجيشان جمع السلطان عبد الملك الناس وخطبهم ، ثم استدعى النصارى الى القتال ، ونصب لهم علامته ، فاحجموا وكان قصدهم المطاولة ، وقصد السلطان عبد الملك المناجزة ، وذلك لان محمد المسلوخ قد دس اليه من سمه .

قال منويل : ولما أحس عبد الملك بذلك ، وانه لا محالة هالك ، بـذل نفسه للقتال ليموت فى الجهاد ، وكان المسلوخ يتربص كى يهلك عمه قبل اللقاء فتقع الفتنة فى عسكر المسلمين ، لكن جيش النصارى لم تكن لهم مؤنة يطاولون بها فالجأهم ذلك الى المناجزة ، ولما انتشبت الحرب هلك عبد الملك للحين .

قال منويل : وكان امر هذا الرجل عجبا فى الحزم والشجاعة حتى أنه لما مات مات وهو واضع سبابته على فمه ، كأنه يشير الى جيشه أن يسكتوا عـن الخوض فى وفاته حتى يتم أمرهم ، ولا يضطربوا ، وكذلك كان ، فانهـم كتموا موته فانتصروا وظفروا بالنصارى ظفرا لا كفاء له ، فكانوا يذبحونهم مثل الكباش

ودهش النصارى وتكبكبت جموعهم ، وتراكمت أمتعتهم وصناديقهم وخيلهم وسلاحهم بلا ترتيب ، وزادهم دهشا أن بعض طوابيرهم كان ينادى صاحب صفارته وراءكم وراءكم قطعكم العدو، ووقدت النار فى بارود النصارى فنفط، وانهزموا الى وادى المخازن فتهافت جلهم فيه فهلكوا والباقى أسره المسلمون .

وزعم أن سبستيان هلك تحته فى ذلك اليوم أربعة أفراس ، وكان شابا حدثا، وقال لاصحابه: « ان ترونى ترونى أمامكم وان لم ترونى فانافى وسط العدو أقاتل عنكم» قال : وأبدأ وأعاد فى ذلك اليوم الى أن خر قتيلا ، وبقى مذكورا عند البرتقال يسمرون بأخباره ، وذكره شعراء الاوربا فى أشعارهم ، ولا زالوا يذكرونه الى الآن .

وخلفه فى ملكه الطاغية الريكى البرتقالى فهو الذى ولى بعده وافتدى جنازته من المسلمين ونقلها الى سبتة فبقيت هنالك الى أن هلك الطاغية الريكى، وتولى على البرتقال طاغية الاصبنيول فيليب الثانى ، فصار ملك الدولتين معا ، وهو خال سبستيان أخو أمه فنقل جنازته من سبتة الى أشبونة ، ثم أرخ منويل الوقعة بالتاريخ العربى والعجمى موافقا لما مر فهذا ما ذكره فى هذه الوقعة .

قال في «النزهة» : توفى السلطان أبو مروان عبد الملك بن الشيخ فى زوال اليوم المذكور ، وبايع الناس أخاه أبا العباس أحمد المنصور بالله كما سيأتى ان شاء الله .

قال فى «درة الحجال» : « فانظر لحكمة الله الواحد القهار أهلك ثلاثة ملوك يوم واحد ، وهم : أبو مروان بن الشيخ ، وولد أخيه محمد بن عبد الله المسلوخ ، والطاغية سبستيان ، وأقام واحدا وهو أبو العباس المنصور » اه .

قلت : وفى اهلاك الثلاثة واقامة الواحد اشارة واضحة لاهلاك دين التثليث ونصر دين التوحيد فى ذلك اليوم والله تعالى اعلم .

ولما بلغت الهزيمة الى الطاغية الاعظم ، أعنى القائم بالامر بعد سبستيان لان التحقيق انه كان الاعظم يومئذ لما مر ، بعث الى المنصور بعد استقلاله بالملك وعوده الى فاس كما سيأتى يلتمس منه الفداء فيمن بقى بيده من

الاسارى ، فأجابه الى ذلك وحصل له بسببه أموال طائلة . وذكر بعضهم أن الاسارى لما ذهبوا الى بلادهم قال الطاغية : « لم لم تأخذوا تطاوين والعرائش والقصر قبل ان يصل ملكهم ؟» فقالوا له:« امتنع من ذلك الامير الذى كان علينا » . فامر بهم فاحرقوا جميعا .

مضحكة : قال فى « النزهة » : « ذكر بعضهم أن النصارى لما وقعت عليهم الكائنة المذكورة وفنى من فنى منهم ورأى أساقفتهم قلة عددهم وخلاء بلادهم لكثرة من مات منهم أباحوا للعامة فاحشة الزنا ليكثر التناسل ويخلف ما هلك منهم ورأوا ذلك من نصرة دينهم وتقويم أود ملتهم أخزاهم الله » اه .

وقد وقفت على تاريخ لبعض مؤرخى الفرنج النجليزيين من أهل جزيرة مالطة فرأيته قد ألم بخبر هذه الوقعة وصرح بانها كانت سبب هلاك البرتقال وتلاشى دولتهم وبطلان كرسى سلطنتهم حتى استضافهم اليه طاغية الاصبنيول بعد نحو سنتين وصيرهم من جملة رعيته ، ومن فصول كلامه بعد أن ذكر أن أكثر البرتقال قتلوا فى ذلك اليوم ما نصه : « وكانت يعنى الوقعة المذكورة وقعة هائلة ويوما مشؤما . وبالجملة فقد قتل فى ذلك اليوم سائر أشراف البرتكيسيين ولم يتخلف منهم أحد فلما بطل كرسى سلطنتهم قام وقتئذ فيليبس الثانى ملك اصبانيا وتزوج ملكتهم وحكم على البلاد كلها » اه كلامه . الا أنه ذكر أن السبب فى استغاثة السلطان محمد بن عبد الله بالبرتقال هو تغلب الاصبنيوليين على مملكته وانتزاعها من يده وهو كذب أو غلط ، ولعله تصحف عليه لفظ الاصطنبوليين بالاصبنيوليين ، اذ قد تقدم أن السلطان أبا مروان انما استولى على المغرب بجيش الترك المنفذ من قبل السلطان سليم العثمانى والله أعلم .

وقد ألم بهذه الوقعة أيضا لويز مارية فى كتابه الموضوع فى أخبار الجديدة لكنه لم يبسطها على عادته فى السكوت عن مايكون من الظهور فى جانب المسلمين واشاعة ما يكون من ذلك فى جانب النصارى بل والزيادة فيه ومع ذلك فقد قال فى وصفها كلاما هذه ترجمته : « وقد كان مخبوءا لنا فى مستقبل الاعصار العصر الذى لو وصفته كما وصفه غيرى من المؤرخين لقلت

هو العصر النحس البالغ فى النحوسة الذى انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح ، وانقضت فيه أيام العناية من البرتقال وانطفأ مصباحهم بين الاجناس وزال رونقهم وذهبت النخوة والقوة منهم وخلفها الفشل وانقطع الرجاء واضمحل ابان الغنى والربح وذلك هو العصر الذى هلك فيه سبستيان فى القصر الكبير من بلاد المغرب » اه. فهذا كلام هذا البرتقالى قد تحفظت عليه وأديت ترجمته كما هى ليعتبر به من يقف عليه «والحق ما شهدت به الاعداء»

ولما تمت للسلطان أبى العباس المنصور البيعة بوادى المخازن طالبه الجيش بأرزاقهم واستنجزوا اعطياتهم حسبما جرت به عادة من قبله معهم فطالبهم هو بخمس الغنيمة لانهم جعلوها نهبى ولم يقتسموها على الوجه الشرعى كما سبق فصعب استخراجها منهم لعدم التعيين وجرأة الناس على الغلول فسامحهم فيها وسامحوه فى عطائهم .

ثم أمر المنصور بتوجيه كتب البشارات الى الآفاق بهذا الفتح المبين فكتب الى صاحب القسطنطينية العظمى والى سائر ممالك الاسلام المجاورين للمغرب يعرفهم بما أنعم الله به عليه من اظهار الدين وهلاك عبدة الصليب واستئصال شوكتهم ورد كيدهم فى نحرهم فوردت عليه الارسال من سائر الاقطار مهنئين له بما فتح الله على يده حسبما نذكره بعد ان شاء الله .

بقية اخبار السلطان ابى مروان وسيرته

قال ابن القاضى : « كان سبب وفاة السلطان أبى مروان رحمه الله أنه سقى سما ، وذلك أن قائد الترك الذين كانوا معه ، واسمه رمضان العلج ، بعث الى بعض قواده أن يتلقاه بكعك مسموم هدية للسلطان المذكور وقت مرورهم عليه ، وقصد بذلك قتله ، وذلك بعد أخذه به مدينة فاس ليثبت لهم الملك بها فلم يكمل الله مرادهم لما شهدوه من عظيم جيش المغرب فهذا كان سبب موته رحمه الله » اه . ولما توفى حمل الى مراكش فقبر بها ، وكانت مدة خلافته